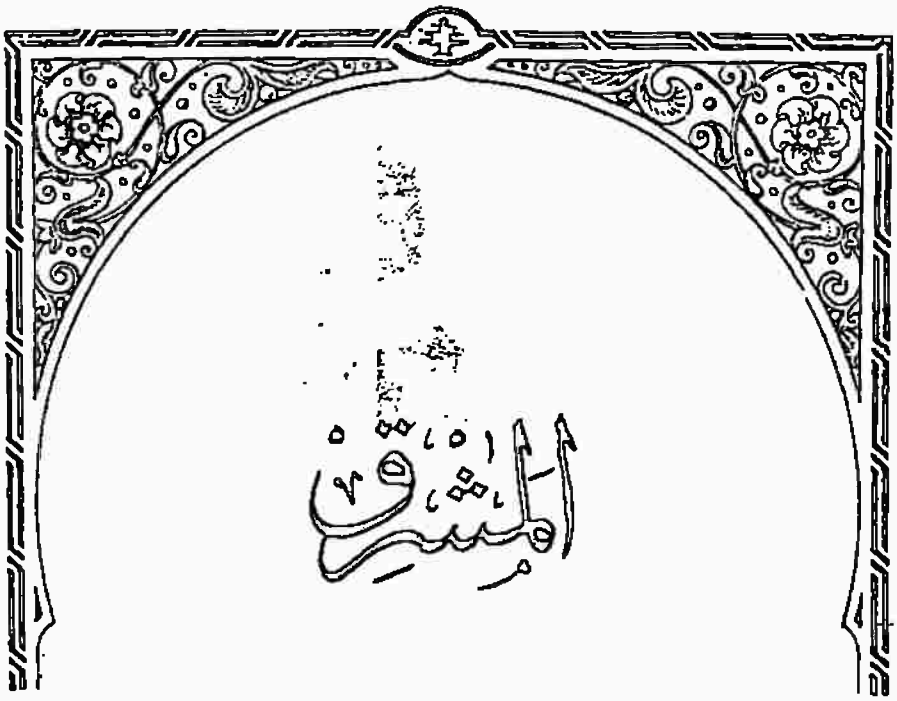

السنة السابعة والاربعون

ايار – حزيران ١٩٥٣

الروم الملكيون في الاسلام

مقتل البطريرك الانطاكي الملكي الشهيد خريستوفوروس

سنة ٣٥٦ للهجرة – ٩٦٧ للميلاد

حدثاً له لمكانته لدى الامير سيف الدولة علي بن حمدان

ويليه

قسم من اخبار جثالقة الروم الملكيين في العراق وبلاد فارس

نشرهما لاول مرة حبيب زيات عن نسخة بيتية من القرن العاشر

المقدمة

لا يزال تاريخ البطاركة الملكيين في الاسلام في كراسيهم الثلاثة انطاكية والاسكندرية واورشليم غامضاً مجهولاً في اكثر ازمانه المتقدمة لقلة من صرف النظر اليه او لندرة الآثار التي انتهت الينا منه ونجت من نيران المحن

والحروب. ولا نعلم انه قام من الكتبة الملكيين من اهتم بجمع اخباره الدينية والدنيوية وحفظها في كتاب خاص كما فعل الناطرة في كتاب اخبار فطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل لماري بن سليمان . والباقية في تواريخ البطاركة ديونيسيوس التلمحري وابن العبري . ميخايل في السريانية . والاقباط في كتاب سيَر البطاركة لساويرس بن المقفع . وغاية ما بلغنا من آثار الملكيين في اللسانين الرومي والعربي قصص من اشتهر من النساك والحبساء والشهداء والقديسين في مجاميع اطلقوا عليها اسم السنكسارات Synaxaires وهي التي دعاها الاقباط الدلالات لدلالتها على ايام الاعياد والتذكارات وعرفها المتأخرون من الملكيين باسم الدولاب. ولكن هذه المجاميع لا تخلو من المبالغة والافراط حباً للترغيب والتهويل ولا تبنى على مثلها حقيقة قاطعة لاثبات ما كان في الواقع الصحيح . واهم ما حفظه الرهبان والنساخ الملكيون في اللغة السريانية اصداء ونتف من الاخبار والسماعات قيدوها في تضاعيف مخطوطات لهم وقفوها على الاديار الشامية وبقي منها في دير السيدة في صيدنايا من ضاحية دمشق بقية صالحة شاهدها بعض الزوار في اوائل القرن الثامن عشر وهي التي امر البطريرك الرومي الارثذكسي ايروتيوس (١٨٥١ — ١٨٨٥) باحراقها وتعمية آثارها «فخبزوا عليها خبزتين » . وكنا اول من نبّى فاجعة التاريخ بها وقبّح فظيعة اتلافها وندب فداحة خسارتها لمعرفتنا حق المعرفة بطالعتنا بعض المخطوطات التي أُغفلت منا ما كان في هوامشها وحواشيها والذيول المعلقة عليها باقلام كتابها وقرائها من الفوائد والفرائد التي يُعوَّل على نظائرها لتعريف ما تقدم من السيَر والاعمار وتمييز ما حسُن او قبح من الاعمال والاخبار .

وقد نبّه المسعودي مؤلف مروج الذهب على قلة ما وقف عليه في زمانه من تواريخ الروم الملكية . وجاء من بعده سعيد بن بطريق بطريرك الاسكندرية واقتصر في كتابه نظم الجوهر على تدوين ما علمه من الحوادث والكوائن السالفة باوجز عبارة وايسر شرح فلم يتجاوز المتداول منها في زمانه ولا استخرج شيئاً مما كان منسياً دفيناً في خبايا الاديار والكنائس . ولعله كتم عمداً بعض ما كان يعلمه منها تحرزاً من النقمة او تقيّة من السلطان كما فعل ابن العبري في تاريخه العربي « مختصر الدول » من الاجتزاء بايراد ما لا يتوجّه عليه من اجله

انكار ولا يسوء قراءة العرب خلافاً لتاريخه الكنسي الذي كتبه بالسريانية وتوسع فيه في الرواية لانه أمن اطلاع من كان يخشاه من القرباء عن لغته . وخلف سعيدَ بن بطريق نسيبه يحيى بن سعيد بن يحيى الانطاكي وهو سيد من أرّخ ووصف فاتى بما لم يأتِ به احد من قبله وافاض في رواية وقائع الدول ونعوت الرجال ونقل من اخبار الروم والروس والبلغر والكرج ما يشبه ان يكون استمد بعضه من سجلات زمانه ودفاتر الدواوين السلطانية وانفرد به عن كل من تقدمه او اتى بعده من المؤرخين . ومن الشقاء وسوء حظ العلم ان يكون اقتصر في تاريخه على كتابة ذيل فقط على تاريخ سعيد بن بطريق دون ان يتناوله منذ البدء ويُتمّ ما كان ناقصاً فيه ويسدّد اوهامه ويسدّ كل فراغ فيه كما عنّ له لاول وهلة كما قال. ولا نعلم ان احداً مشى على سَنَنه في الاطلاع والتحقيق واحاط نظيره باخبار الشرق وحوادث الاعاجم من مزاحمي الروم البيزنطيين في المغرب. ثم ساءت احوال النصارى بعد وفاته وختم الذل والشقاء عليهم وزهد الرهبان ورجال الدين في التدوين والتأليف فلم تنصرف عناية ناقل او ناسخ منهم الى الفحص عن ماضي الكراسي البطريركية الثلاثة وجمع ما تبدد من انبائها وسيَرها بالاستناد الى ما كان خبيئاً في خزائن الكنائس والاديار خلا الشماس بولس الزعيم الحلبي في منتصف القرن السابع عشر وهو ابن البطريرك مكاريوس ورفيقه في اسفاره وتنقلاته وراوية ارائه وانبائه وقد شارك والده في جميع ما عرّبه من الرومية او ألفه في العربية من التواريخ والاخبار.

ومن اعجب فضائل هذا الشماس انه كان حيثما حلّ والى اين رحل لا يكلّ ولا يني في السؤال والتفتيش عن الكتابات والمخطوطات المحفوظة في زمانه ويستعين بجاه والده لاستمارتها وينسخ منها بقلمه الرشيق كل ما يجد فيه فائدة او غرابة من تواريخ الشام وانطاكية ووطنه حلب خصوصاً ويتطلب المشهور والمكتوم من قصص القديسين وسيَر الجبناء. والنساك مهما طالت واملّت كثيرة مار سمعان العمودي الحلبي حتى اجتمع له من هذه المتفرقات والمستمارات طائفة جليلة ساقها في نوبتها ومحلها في مجلد له كبير وقع الينا بخطه الجميل الجلي وفيه لسوء الحظ بعض الحروم اهمها الصفحات الاولى والاخيرة منها وبسقوطها فاتتنا معرفة الاسم الصحيح الذي اطلقه على هذه السفينة التاريخية وغاب عنا نص

الفاتحة التي صدرها بها ، ويظهر من مطالعة مضامين كتابه انه توخى عامداً محترزاً جمع اخبار انطاكية وبطاركتها ورجالها وهو ما رجّح عندنا تسمية هذا المجموع « تاريخ انطاكية » بينما تكشف لنا الايام اسمه الحقيقي .

ومن مزايا خطته في الجمع والنقل انه ضم الى كل خبر من الاخبار المروية بحسب السنين كل ما وجده في معناها في المخطوطات الاسلامية والنصرانية والرومية التي كانت لديه او ما عرّبه له المترجم من المرسلين الفرنج الذين كانوا في ايامه بحلب . وذكر في كل مرة اسماءها واسماء مؤلفيها لتسهل على القارئ مقابلتها ومعارضتها ويطلع على كل ما قيل فيها . وألحق بها ايضاً كل ما وقف عليه مما يتعلق بها او يكون في معناها من سيرة نادرة او نسخة يتيمة من كتاب عزيز الوجود ينقلها بأسرها دون ان تهوله كثرة الفصول وتعدد الصفحات مع الاشارة في الهامش الى ما في الاصل احياناً من حذف او اختصار فكل ما في مجموعه هو من اقوال غيره وليس له فيه قول خاص سوى ما استعاره مرة بعد اخرى لتكملة الاخبار او مقابلتها من تاريخ والده وتاريخه المسمى بالدر المنظوم في اخبار ملوك الروم وهو معرب من الرومية .

ولا يغبى عن كل من مارس قراءة المخطوطات ما في خطوط النساخ غالباً من التحريف وسوء الرسم لسوء الفهم والتباس المعنى على الناقل لقلة ضبط الكلم واهمال النقط والاعجام بحيث يصعب احياناً على العالم نفسه الاهتداء الى الاصل وردّه الى نصابه فكيف بمن كان كالشماس قليل التطلع على قواعد اللغة واسرارها ولذلك لا يخلو نقل له من بعض تصحيف وخطإ في القراءة والنسخ ولا سيما في ما حار نظره فيه من رسوم الحروف التي قرضت بعضها الأرضة او بدلتها اقلام جهلة النساخ او ما كان بالياً او محوّا اكل الدهر عليه وشرب من الاجزاء النادرة اليتيمة كسيرة مقتل البطريرك خريستوفورس الشهيد التي استمد منها يحيى بن سعيد في الذيل ما لخصه في جملة اخبار سيف الدولة .

وفي هذه السفينة الحلبية قدّر لنا لحظ الظفر برواية قديمة من الذيل الحقه يحيى بن سعيد الانطاكي بتاريخ البطريرك الاسكندري افتيشيوس المشهور بسعيد بن بطريق كما ذكرناه آنفاً وهو الذي طبعه سنة ١٩٠٩ الاب لويس شيخو باسمه واسم البارون كارادفو وباسمنا بالاستناد الى نسختنا الثلاث ولكنه رحمه الله

انفرد بالتمثيل والطبع . وكان على ما اتصف به من الحفظ وسعة الاطلاع لا يكاد يذعن لرأي سواه ثقة بنفسه فجاءت الطبعة بعيدة عن الكمال لا تتبرأ من العيوب التي تجلّ عنها منزلة يحيى بن سعيد في التحقيق والفصاحة . ولذلك لا تزال الحاجة داعية الى اعادة طبع الذيل واعمال الروية في ما اضطرب من الفاظه لتصحيحها وهو اجلّ تاريخ للنصرانية في الاسلام وقل جدًا ان يضاهيه في لطافته وجدّه تاريخ آخر في معناه في الشرق .

واهم ما علقت بسه يدنا من هذه اللُّقَط الحلبية نص استشهاد البطريرك خريستوفورس في انطاكية ومقتله غدرًا بيد اعداء الامير سيف الدولة الحمداني حسدًا له لمكانته من الامير وقبول الامير شفاعته في بعض عولاء الاعداء وهي من انشاء احد شهود البطريرك العيانيين ممن نشأ في انطاكية وعرفه وهو صبي واسمه ابراهيم بن يوحنا الأَرْطُبْتِيار ἀρτοπτίκιος وهذا اللقب من القاب الروم البيزنطيين .

وكان ابرهيم بن يوحنا احد كتاب الروم الملكيين في القرن العاشر ولد في انطاكية ويغلب على الظن انه كان من اصل رومي لانه كان يكتب دائمًا بالرومية ويجيدها ثم يعرّب بنفسه ما يكتبه تعريباً تدل بعض لهجته على انه لا يخلو تارة من الفصاحة ولذلك اورده يحيى بن سعيد بلفظه دون تغيير . ثم يضعف تارة اخرى او يتبهم في مواضع يغلب عليها الاسلوب الرومي فلا يجد في محفوظه من اللغة العربية ما يؤدي به المعنى بما يرادفه من اوضاعها وتعابيرهـا الصحيحة فيأتي كلامه هجيناً يصعب جدًا فهمه لاخراجه اياه في قالب اعجمي . ولا شك ان لبعض النساخ يـدًا في تحريف الاصل زاد في الطين بلة وافقدنا جانباً من فوائده التاريخية .

ولابرهيم بن يوحنا تعريبات شتى لبعض اقوال اباء الكنيسة وهي التي تدعى عندهم ميامر منها ميمران الثاني عشر والثالث عشر لمار غريغوريوس الثاولوغس في مخطوط رقم ١٤٢ من مخطوطات بوروجيا في خزانة الڤاتيكان (الورقة ١٠١) وفي الخزانة نفسها مخطوط آخر يتضمن ميامر مار افرام (الورقة ١٧٢–١٨٤) وفيه مديح تاله القديس غريغوريوس اسقف نيس في مار افرام ختم بهذه الحاشية :

« نقل هذا المديح الابرطسبتار الكاتب الملكي ابرهيم بن يوحنا الانطاكي واملاه من كتبه بالعربية من نسخة يونانية » ومن هذا المديح ايضاً نسخة في خزانة اكسفرد في اواخر المجموع Marsh 477 .

ويستدل من حاشية بخطوط القاتيكان ان لقب الابرطسبتار لم يكن ليوحنا والد ابرهيم كما يُظَن بل لابنه ابرهيم وسيأتي من اقواله في سيرة البطريرك الشهيد ما يزيد نفسه تعريفاً . وفي ختامها ايضاً تعداد ما كتبه كذلك من سيَر بعض رجال الدين في ما خلا استشهاد البطريرك خريستوفورس .

ولما بلغ الشماس بولس من ذيل يحيى بن سعيد خبر خريستوفورس اتبعه على الاثر بنص الاصل الذي استند اليه يحيى في حكاية هذا الخبر من تعريب ابرهيم ابن يوحنا وكان قد وُفِّق للعثور عليه في ابتداء بطريركية والده وهذه صورة ما قدمه في فاتحته قال :

« اعلم يا اخي اني في ابتداء بطركية والدي وجدت هذا الخبر العجيب المفرد في اخر كتاب قديم جدا بخط سقيم غير منقوط واكثر كلامه معجي ومؤكل من العث والدرس . ولاجل ذلك فيه بعض امكنة فاضية ولم اجد له نسخة ثانية في كل بلاد العربية وديورتها وكنائسها فرأيت من الموجبات ايراده هنا في هذا المحل لانه نفيس جدًّا » .

ومن الغريب ان الشماس لم يخطر له قط ان يزور دير طورسينا في كل مدة بطريركية والده ولا يتبين لنا سبب هذا الاهمال ولا ريب انه لو تيأ له هذا السفر لعاد من الدير وحقائبه ملأى من النوادر والنفائس وبينها نسخة اخرى من خبر البطريرك فيما بلغنا .

وكنا منذ خمس عشرة سنة لما وقع نظرنا على هذا الخبر الفرد وتأملنا ما اشتمل عليه من الاقوال والطرائف ادركنا فورًا ما له من الاهمية القصوى في تاريخ النصرانية عموماً والروم الملكيين خصوصاً وهممنا بنشره لاول وهلة ولكن اعترضنا في قراءته من التحريف والتشويه والغموض في المتن الذي تنازعه القِدَم والعث ولم يبقَ منه احياناً الا اشباح الحروف ما لا يقوى على اصلاحه وحلّ احاجيه وارجاعه الى ثوبه الاول الا من رُزق الكهانة او النبوة . فطويناه على عزّه املًا ان نتفرغ لتأمله واعمال النظر فيه على هينتنا او ان ترزقنا السعادة اكتشاف نسخة اخرى في طوافنا على الخزائن العربية في الغرب والشرق ولكن

خاب رجاؤنا من هذا القبيل وعدنا من كل هذه الزيارات اشد يأساً وابعد طمعاً في وجود ضالتنا. وعقدنا النية حينئذٍ على ان ننشر ما لدينا على علاته وعيوبه. ثم بلغنا ان في دير طورسينا نسخة منه[1] فعزمنا للحال ان نرحل اليه متى امكنتنا الفرصة. واردنا قبلاً ان نحتاط لزيارة الدير برخصة من رئيس الاساقفة فيه لنتمكن من قضاء الوقت الكافي لمطالعة ما في خزانة الدير من الفوائد والفرائد وهي لا تزال سراً من الاسرار لصعوبة الرحلة الى الطور وتعذر المعيشة فيه الا باذن خاص. ولما توجه منذ ثلاث سنوات الى القاهرة الحبر الكامل كيريوس بطرس كامل مدور المعاون البطريركي التمسنا منه ان يتكرم بالتوسل الى رئيس الدير بالسماح لنا بالزيارة والتفتيش في محفوظات الدير فاجاب رئيس الاساقفة طلبنا بغاية من اللطف والارتياح واجاب انه لا يقنع بهذه الزيارة بل يلح علينا بالمكوث في الدير كل المدة الكافية للاطلاع على ما في خزانته من المخطوطات العربية التي لم يتفرغ احد من الزوار لدرسها والتنويه بما في طيها من الطُرَف والتحف. وكنا وقتئذٍ بدمشق فاخذنا بالاستعداد للرحلة الى الطور ولكن فاجأنا لسوء الحظ ألم شديد قعد بنا عن المسير فاضطررنا والقلب مفعم من الحسرات الى تجنب هذا الخطر وارجأنا نشر الخبر الذي لدينا الى حين رجوعنا الى نيس. وتبيَّن لنا بعد التروي واطالة المطالعة ان لا بأس من طبع الخبر على عواره لان معظم ما تناوله التحريف والابهام انما هو في الحقيقة من حشو الكلام وفضول المدائح التي اطرأ بها المنشئ فضائل البطريرك وتقواه وغيرته وكرمه ومحاسن اخلاقه. وان ما التبس فهمه من تفصيلها يُدرك بسهولة من جملتها. وصح عندنا ان كل ما عداها من تاريخ حياة البطريرك واعماله ووفاته وما كان في زمانه من الاحداث الجليلة واخبار جثالقة الروم الملكيين في العراق وبلاد فارس وشيوع الكنائس الملكية في المدائن ومرو والشاش وروبجرد — وهي واسطة العقد وطُرفة الطُرَف. ولا ذكر لها في غير هذا الخبر — باقية على حالها

---

١) بعد كتابة ما سبق وجدنا ذكر خبر مقتل البطريرك خريسطوفورس في المجموع رقم ٤٠٧ من جريدة مخطوطات دير طور سينا (ص ٧٣) *Catalogue of the Arabic Mss in the Convent of S. Catharine Compiled by Margaret Dunlop Gibson.* London, 1894.

وجدتها لم يعترها شيء من النقص والتصحيف ولا تحيفها بلى ولا سوس وهي جلّ عيون ما في هذا الاثر الفريد الذي خلده لنا فضل الكاتب ابرهيم بن يرحنا الانطاكي واجتهاد الشماس بولس الحلبي .

وبدلًا من سياقة هذا الخبر بحروفه التي بلغتنا ومعمّياتها العديدة رأينا ان نلخص اهم ما ورد فيه من الفوائد ليكون مستندًا يرجع اليه كل راغب في الوقوف على حقيقة تاريخ الروم الملكيين في الاسلام وحافظنا ما استطعنا على كلام المنشئ حيث لا خلاف فيه للاصول العربية ولا هجنة عليه من الرومية .